الوضع الحقيقي لمشكلة

جابر بن حيـــان

للأستاذ أحمد زكي صالح

تقرير الأستاذ رسكا Ruska[1]

يتساءل الأستاذ رسكا : كيف وأين نظمت وألفت هذه الكتب المنسوبة إلى جابر ؟ هل هي أعمال فرد واحد أم من أعمال مدرسة ؟ هل حدث تأليفها وتطورها وتقدمها في مدى وقت قصير أم انتشر على بساط قرن كامل ؟ كل هذه أسئلة لا زالت أجوبتها غامضة ، بل قل لا زالت غارقة في بحر من الغموض والإبهام

وتلك النصوص التي نشرت بإشراف الأستاذ هوداس[2] لا تكفي تماماً كي نصدر حكماً صحيحاً على مميزات أدب جابر بن حيان الكيميائي

ويجب أن أعترف أن « كتاب الرحمة » بمحاوراته المضحكة بين جابر بن حيان وجعفر الصادق ما هو في الحقيقة إلا قصة ملفقة ، و « كتاب الملك » يفشي سر نفسه بنفسه حينما يرجع أصله إلى جعفر الصادق ، وبعض النتائج يمكن استنتاجها في شأن « كتاب الموازين » لأنه عنوانات بعض أعمال أرسطو في المنطق التي ابتدأت معرفة العالم الإسلامي لها بعد أواخر القرن التاسع من الميلاد. ولكن إذا سلمنا بصحة نقد هذه الكتب الثلاثة، فهل يؤثر هذا بقليل أو كثير في المشكلة ككل ؟ وبالأحرى هل يمكن أن نفصل المؤلفات الكيميائية مسلمين بأنها من عمل جابر عن قائمة الفهرست الثانية[3] ؟ أليس من المعقول أن مؤلف الكتب الكيميائية ينتمي إلى زمن وإلى بيئة مدرسية يختلفان كل الاختلاف عن هؤلاء الذين ألفوا الكتب الطبية والفنية والرياضية والإلهية ؟

من الجلي الواضح أن ذلك الذي يستطيع الأخذ بيدنا إنما هو البحث خلال المخطوطات التي عثر عليها أخيراً ، وإني لموفق إذ استطعت الحصول بمساعدة الأستاذ ماكس مايرهف Max Mayerhof لا على صور للنصوص العربية للسبعين كتاباً التي ذكرها ابن النديم فحسب ، بل أيضاً على بعض النصوص غير المعروفة ككتاب « السموم » و « الملك النوعي » وغيرها من المؤلفات التي جمعت لأجل « مجمع برلين للدراسات الطبيعية »

وهذه المؤلفات قد فتحت مدى أوسع في الأبحاث في هذا الموضوع لم يتحقق من قبل ، فكتاب السموم أصبح اليوم أمنع من أن يناله هجوم ، وهو يبين مقدار معرفة جابر الطبية، أما الفصول المتعددة من كتاب « الخواص النوعية » فيمكن النظر إليها على أنها مقتطفات من كتب مختلفة المقرر أن جابر كتبها في هذا الموضوع ، ويمكن أن نقول إن كثيراً من البحث والاجتهاد يحتاج إليه ذلك الذي يريد الكشف عن حقيقة هذه المؤلفات والإجابة على السؤال الآتي : كيف جاءت مؤلفي هذه الكتب فكرة نسبة هذه المؤلفات إلى الإمام جعفر الصادق[1] أو تلميذه المدعى جابر ... نقول إن الإجابة على هذا السؤال تتعقدت كثيراً ...

وأولى الملاحظات التي يمكن استفادتها من نتائج أبحاث مجمع برلين في النصوص العديدة هي : أن ارتباط الحقائق المختصة بالكيمياء وعلم البحث عن الصنائع technologie والطب لازم كما هو في نفسه ولكنه لا يبين ولا يقدر الغرض الأخير لهذا الأدب ؛ إذ أن كل التفاصيل العلمية إنما تتحرك في اتجاه مذهبي واحد ، وأن المتأخرين هم الذين أعطوها المعنى والتحقيق . والسبب الفلسفي هو نقطة البدء في هذه المؤلفات كلها ، وهذا السبب الفلسفي إنما ترجع إليه قيمتها ، وكثيراً ما كان يتكرر بشكل يقيني في هذه الأعمال أن العلم لا يمكن أن يكون إلا إذا كانت هناك نظرية خاصة يضعها نصب عينيه . وهذه المشكلة تمت لأول

(١) نشرت هذه المخطوطات بإشراف هوداس في كتاب الأستاذ برتلو Berthelot: Traité d'alchemié arabe

(٢) Ruska. J. : The history of Jabir Problem Islamic culture 1937 P. 303 — 312

(٣) هذه القائمة ذكر فيها ابن النديم أعمال جابر في غير الكيمياء كالعلم الإلهي ، والطب ، والفلسفة ، والمنطق ... الخ

(١) جعفر الصادق إمام فلسفي عاش على ما نعتقد في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني للهجرة ، ونظن أنه مارس الصنعة أعني الكيمياء ، ولقد كان علاوة على ذلك متكلما شيعيا ، صوفيا ، زعيما دينيا . كما يقال إن جابر بن حيان تتلمذ عليه في الكيمياء .

وهلة لمشكلة السببية . وتبعاً لذلك فإن مفهوم « الميزان » الذى يعد من أهم مميزات مؤلفات جابر بن حيان ، ونظرية الخصائص النوعية للأشياء المتعلقة بمدى التحول الكيميائى يعتمدان على أسس عددية دقيقة

وربما لا يبدو هذا فى الكيمياء الحديثة شيئاً يذكر ، ولكن العجيب حقاً هو ذلك التيار الذى واظب عليه العقل البشرى ، واجتهاده فى تبيان أن القانون الطبيعى إنما يعتمد فى أساسه على أسس عددية ثابتة . ونحن أصبحنا اليوم ، بعد هذه الأبحاث ، نعتقد أنه نجح تماماً فيما كان يصبو إليه ؛ فإن قانون الأعداد هذا فى نظر جابر بن حيان يضع كل شىء فى الوضع الحقيق له فى العالم

ودراسة بعض النصوص التى ذكرت آنفاً تقودنا خطوة أخرى نحو الغرض الفلسفى البحت لهذه الأعمال . أقول إن هذه الدراسة تقودنا خطوة أخرى حين تطلعنا على الصلات والعلاقات بين هذا الغرض الفلسفى وبين النظريات الجابرية فى العلم الإلهى التى هى الغرض والغاية النهائية الحقيقية لهذا الأدب الجابرى

فالنظريات العلمية التى احتوت عليها هذه المؤلفات قيل إنها ليست شيئاً آخر غير معلومات محمد « صلى الله عليه وسلم » و « على ابن أبى طالب » وأستاذ جابر « جعفر الصادق » ، وهذه الخرافة تذهب إلى حد أنها تفسر بعض نصوص القرآن على ضوء الكيمياء كما ينسب لى بعض المحاضرات فى موضوعات كيميائية ، وفى بعض هذه النصوص يظهر بعض المذاهب التى تتفق تماماً وما تقول به فرقة الاسماعيلية [1] من الناحيتين الفلسفية والعملية ، ومن ثنايا أفكار هذه المدرسة الدينية التى رئيسها وإمامها وأستاذها الإمام جعفر ، يمكن أن يفهم المعنى الكامن فى نظريات جابر ابن حيان ، وهذه الحقيقة تثبت عرضاً أى فى كل هذه المؤلفات إنما ترجع أصولها إلى النصف الأخير من القرن التاسع أو النصف الأول من القرن العاشر للميلاد أى القرنين الثالث والرابع من الهجرة ، أو قل فى ذلك الوقت الذى بلغ فيه الإسلام الذروة فى هضم الفكر اليونانى ، وهكذا يمكن أن ترد تلك الثروة العلمية والفكرية التى توجد فى مؤلفات جابر بن حيان .

مناقشة رأى الأستاذ رسكا

الأستاذ رسكا فى نقده لكتب جابر الثلاثة : الرحمة ، الملك ، الموازين ، لا يحتاج لكثير عناية لتفنيده ، إذ أن رسكا يتناول الموضوع من ناحية سلبية بحتة ، مثل الأستاذ رسكا فى ذلك كمثل اثنين يتحاوران ، بعد أن عرض أحدهما رأيه قال له الآخر كلا إنك مخطىء وتركه ومضى فى طريقه ، فهو لم يبين له لماذا هو مخطىء وما هو صواب هذا الخطأ . كذا الحال فى نقد رسكا لهذه المؤلفات الثلاثة ، فهو يقول إنها ليست لجابر بن حيان ، فهل ينتظر منا الأستاذ رسكا أن نحنى هاماتنا لرأيه سامعين طائعين مختارين ؟ وحتى هبنى سلمت بصحة هذا النقد الضعيف فأى قيمة تكون له فى إخراج هذه الكتب الثلاثة عن دائرة مؤلفات جابر الكيميائية وهى تبلغ سبعين مؤلفاً ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الأستاذ رسكا فى القسم الثانى من كلامه ينحو نحو الجدليين ، إذ أنه يلتجىء إلى أسلوبهم وأعنى بذلك أسلوب « المعقول وغير المعقول » .

إن الأستاذ رسكا عالم له أسلوب العلماء وطبعهم وروحهم ونحن لذلك نسمو به عن أسلوب الجدل ، إذ أن العلم ليس أمامه معقول وغير معقول ، إنما أمامه حقائق يسلم بها ، أو لا يسلم بها ، حقائق يبرهن على وجودها أو يبرهن على عدم وجودها ، فالقول بأنه من المعقول أن تفصل كتب جابر الكيميائية عن غيرها قضية كاذبة علمياً ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى : هل نسى الأستاذ رسكا أن التفكير الإسلامى كان فى هذه المرحلة الزمانية أو الفكرية تفكيراً عاماً شاملاً أى تفكير encyclopodique ، وأن التخصص فى التفكير وفى البحث لم يعرف فى الإسلام إلا بعد ذلك بقرن من الزمان على الأقل ؟ ؟

أما القسم الثالث من رأيه وهو تفسير الانتحال لجابر بن حيان فهو يستعيره من أبحاث مجمع برلين ، وسنتركه الآن ونعرض هذه الصورة بشكل أوسع لدى الأستاذ ب كراوس P. Kraus الذى كان مساعداً بهذا المجمع إذ ذاك

رأى الأستاذ كراوس P. Kraus [1]

يرى الأستاذ كراوس أن هذا الأدب العظيم يبين لنا كل مبادىء فى الإسلام من العلم اليونانى لا يمكن أن يكون بأية حال من عمل مؤلف واحد ، ولا يمكن كذلك أن يصعد إلى النصف الثانى من القرن الثانى من الهجرة ، إذ أن جميع الظواهر التاريخية تدلنا على أن هذا الشكل corpus كان من إنتاج أخريات القرن

(١) الاسماعيلية فرقة شيعية وجدت فى القرن الرابع الهجرى ، ولا زالت موجودة إلى اليوم فى الهند

(١) انظر ملحق دائرة المعارف الاسلامية : Ency. de l'Isl. article: D. Jabér par P. Kraus 1934

الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع

وإن كتابات جابر بن حيان لتضع لنا بادىء ذى بدء أسامن مشكلة دينية تاريخية، فكما أن الكيميائين القدماء قد اتجهوا إلى الأجنوزية المسيحية[1] La gnose chrétienne كذلك جابر يقدم فى مؤلفاته العلمية أجنوزية الإسلام ، ولم تكن آراء جابر ابن حيان كتلك الآراء الساذجة الأولية التى وجدت فى محيط الشيعة فى القرن الثانى من الهجرة، إنما كانت أقرب إلى تلك التى كان يتردد صداها فى محيط غلاة الشيعة فى القرن الثالث من هجرة الرسول . وهذه الآراء كانت ذات صبغة سياسية وثورية خطيرة عرضت الإسلام نفسه للخطر ، إذ أن جابراً أعلن قرب قيام الإمام المنتظر الذى سيبطل حكم الإسلام ويحل محل القرآن نور العلم والفلسفة الإغريقيين ، وكان محل عرض هذه الآراء هو نظريات جابر فى مؤلفاته حيث عرض هذا الوحى الروحى الخالص الجديد والذى أوحى به الأئمة العلويون

ووجهة نظر جابر بن حيان فى العلم الإلهى تقترب من القرامطة الذين ابتدأوا يلعبون دورهم فى العالم الإسلامى منذ سنة ٢٦٠ هـ . ودرجات العلم مقسمة عنده نفس التقسيم الموجود عند القرامطة والاسماعيلية

ونظرية امتداد الأئمية قد تقدمت بنفس الخطوات التى تقدمت بها الأئمية ، فالأماميون يقسمون تاريخ العالم من حيث الوحى إلى مراحل سبع يكون آخرها بعث الإمام الجابرى ، وعلى ذلك فإن الأئمة الذين تبعوا علياً ، حتى الإمام القائم الجديد يكون عددهم سبعة وهم على التوالى : الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلى بن الحسين بن محمد الباقر وجعفر الصادق واسماعيل الإمام المنتظر أو القائم . ونحن نلاحظ أن جابراً فى تعداده للأئمة على عكس القرامطة والاسماعيلية لم يعتبر علياً إماماً من هؤلاء السبعة ، وأن هذا السانيت ، الذى يسمو عن الناتيك هو الذى يكون به تجسد الأئمة السبعة الأرضى ، وفى هذه النظرية يقترب جابر من تلك التى يقول بها النصيرية[2] الذين يعتقدون أن هناك ثلاثة أقانيم : « ع » أى على ، « م » أى محمد « س » أى سليمان ، والسين فى نظر جابر سابقة ومتقدمة على الميم ، وفى هذا المذهب يسمى الإمام جعفر « بالإمام المجيد » أو « اليتيم » الذى له تفضيل مباشر على « ع » كما أن له الحظوة على « م » ، « س » . وهنا يقبل جابر القول بنظرية التجسد empsycose والتناسخ والأدوار ، والإكرار ، والنسخ ، والفسخ ، والمسخ .

وإن جابراً ليعلن على رؤوس الأشهاد أن علمه إنما هو وحى أستاذه جعفر الصادق ، وإلى هذا « المنبع من الحكمة » mène de sagesse ترجع كل معرفة جابر ، وما هو إلا جامع ومعلق على مؤلفات أستاذه . وربما كان ذلك راجعاً إلى أن جابراً نفسه يأتى فى التسلسل الدينى فى مرتبة تلى مرتبة جعفر الصادق مباشرة ، أضف إلى ذلك بعض أساتذته مثل حارس حميرات ، أرهون الحمار ، جعفر البرمكى . ولكن نحن نرى أن كل هذه التأكيدات ما هى إلا إفتراءات باطلة إذ أنها متناقضة تماماً مع ما كتبه جابر نفسه فى مؤلفاته . وعلى ذلك فإن تلميذ جعفر الصادق المسمى جابر بن حيان يظهر أنه محض اختراع ، ونحن ندرك تماماً لماذا تنسب كتب كهذه إلى الإمام جعفر الصادق الذى يعتبر فى الأدب الشيعى خير مصدر للعلم اليونانى وخاصة للعلوم السحرية ولعلم الفلك ، أضف إلى هذا كله أن جعفر هذا والد الإمام السابع إسماعيل الذى نص على ظهوره فى هذه المؤلفات

ويشير الفهرست إلى بعض الشك الذى يخالج نفراً من الشيعة المعاصرين لأحد أصحابه فى صحة نسب هذه الكتب لمؤلفها[1] ، وثمة رجل آخر هو أبو سليمان السجستانى المنطقى، يذكر فى كتابه « التعليقات » ملاحظة يستنتج منها أنه هو نفسه يعرف المؤلف الحقيقى للكتب التى تنسب لجابر بن حيان ، ويسمى أبو سليمان باسم الحسن بن النقاد الموصلى ، ولكن على رغم هذه الرواية فإننا نعتقد أن مؤلفات جابر لا يمكن أن تكون من إنتاج رجل واحد رغم تطور التفكير المنسجم فيها . ونحن نعتقد كذلك أن هذا التفكير لم يصل إلى هذا الحد الذى وصل إليه إلا فى سنة ٣٣٠ هـ .

(البقية فى العدد القادم) أحمد زكى صالح

(١) الاجنوزية Gnosticisme هى مذهب دينى فلسفى ، يدعى أصحابه أنهم على معرفة تامة وكاملة بطبيعة الله وصفاته .

(٢) هم أتباع ناصر بن خسرو ، فرقة متكلمة

(١) نص عبارة ابن النديم فى الفهرست : « وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين إن هذا الرجل يعنى جابراً لا أصل له ولا حقيقة ، وبعضهم قال إنه ما صنف ... الخ » ولكن ابن النديم يسفه هذا الرأى ولا يأخذ به كما سيأتى بعد .